الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط في القرن الثامن للميلاد

د. نعيم فرح

جامعة دمشق

البحر الابيض المتوسط (Méditerranée) في اللغة اللاتينية لفظ مركب (Medius - terra) ويعني البحر الذي يتوسط اليابس . واليابس المقصود هو قارات العالم القديم الثلاث : أوروبا وآسيا وافريقيا .

حظي البحر المتوسط باهتمام الدول القديمة والمعاصرة لما له من أهمية استراتيجية ، اقتصادية وسياسية وعسكرية ، وظل على مر العصور منطقة صراع بين الدول التي قامت الى جواره أو وطئت اقدامها سواحله . فالسوريون الكنعانيون (الفينيقيون) بسطوا سيطرتهم التجارية على معظم اطرافه في الالف الثانية قبل الميلاد ، ثم نافستهم في السيطرة شعوب البحر . كذلك تصارع الحثيون والمصريون القدماء للسيطرة على بعض شواطئه . وفي النصف الاول من الالف الاولى قبل الميلاد سعى الاشوريون ثم البابليون الكلدانيون الى بسط نفوذهم على شواطىء المتوسط الشرقية والجنوبية ، فنافسهم في ذلك المصريون . وفي النصف الثاني من الالف الاولى قبل الميلاد تصارع الفرس الاخمينيون واليونانيون من أجل السيطرة على الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، في حين تصارعت روما وقرطاجة من أجل السيطرة على حوضه الغربي . وبعد أن بسط الاسكندر المكيدوني سلطته على حوض المتوسط الشرقي صار هذا الحوض موضوع صراع بين خلفاء الاسكندر ، البطالمة والسلوقيين .

وفي القرن الاول قبل الميلاد تمكنت روما أن تفرض سلطتها السياسية على جميع شواطىء البحر الابيض المتوسط ، فصار هذا البحر بحيرة رومانية داخلية ، وظل هكذا حتى القرن الخامس الميلادي ، حين تمكن بعض البرابرة أن يسيطروا

على قسم من شواطىء حوضه الغربي ، حيث احتل الوندال شمال افريقيا والقوط الغربيون اسبانيا والقوط الشرقيون ايطاليا . لكن الامبراطور الروماني (البيزنطي) جستنيانوس الاول سعى جاهدا الى اعادته بحيرة رومانية كما كان ، فتحقق له ذلك في القرن السادس الميلادي ، باستعادة شمال افريقيا من الوندال وايطاليا من القوط الشرقيين وشرق اسبانيا وجنوبها من القوط الغربيين .

ومنذ القرن الثالث الميلادي حتى القرن السابع دار صراع مستمر بين البيزنطيين والفرس الساسانيين ، كانت أهم اسبابه رغبة الفرس في الوصول الى البحر المتوسط لايجاد منفذ تجاري لهم على العالم المحيط بهذا البحر .

وظل البحر المتوسط بحيرة رومانية (بيزنطية) حتى وطئت سواحله جحافل العرب المسلمين . وسنتناول في هذا البحث الصراع العربي البيزنطي للسيطرة عليه في القرن الثامن للميلاد .

بمقتل الامبراطور جستنيانوس الثاني سنة ٧١١ انتهى حكم الاسرة الهرقلية ، التي حكمت في بيزنطة طيلة القرن السابع . في هذا القرن خسرت بيزنطة معظم ولاياتها الشرقية (سورية ، مصر ، شمال افريقيا) على أيدي الفاتحين العرب المسلمين . وفي الفترة المتدة بين سنتي ٧١١ ـ ٧١٧ ـ أي الفترة الفاصلة بين نهاية حكم الاسرة الهرقلية وبداية حكم الاسرة الايسورية ـ حكم في بيزنطة أباطرة ثلاثة هم : فيليبيكوس (٧١١ ـ ٧١٣) ، أنستاسيوس الثاني (٧١٣ ـ ٧١٥) ، تيودوسيوس الثالث (٧١٥ ـ ٧١٧) ، وكانوا أباطرة ضعفاء غرباء عن الاسرتين المذكورتين توصلوا الى الحكم بمحض الصدفة . في تلك الفترة كان الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥) يعد العدة في البر والبحر لاحتلال العاصمة البيزنطية . ففي عهد الوليد بن عبد الملك بلغت الدولة الاموية العربية ذروة قوتها ، حيث ساد الهدوء والاستقرار في الداخل ، في حين امتدت جبهات الفتوح الاسلامية من اسبانيا الى حدود الهند والصين . ومع اتساع رقعة الدولة كان لابد من تأمين سلامة الخطوط التجارية البحرية بين الولايات الاسلامية وفرض السيطرة العربية على خطوط البحر الابيض المتوسط . ولفرض السيطرة العربية الكاملة على خطوط حوض البحر الابيض المتوسط وأسواقه كان لابد من القضاء على الدولة البيزنطية ، التي تنافس العرب المسلمين في هذا المجال .

من أجل تحقيق هذه الاهداف الاقتصادية والعسكرية أمر الوليد بن عبد الملك بتوسيع الاستعدادات العسكرية البرية والبحرية بغية احتلال القسطنطينية. فأوراق البردي المصرية التي تعود الى بداية القرن الثامن الميلادي تشير بشكل واضح الى ازدياد نشاط الاستعدادات البحرية وبناء السفن الحربية في الموانـي المصرية (الاسكندرية ، بابليون ، القلزم على البحر الاحمر)(١)

ونشطت كذلك في سورية الاستعدادات البرية والبحرية للاشتراك في الحملة التي تهيأ للتوجه الى العاصمة البيزنطية. وعلى مايبدو فقد وصلت الى القسطنطينية أنباء الاستعدادات العسكرية العربية ، فأرسل الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الثاني سنة ٧١٣ سفارة تجسسية الى دمشق لتتعرف سرا على استعدادات العرب ونواياهم المبيتة ضد البيزنطيين. ويذكر المؤرخ البيزنطي تيوفانس أن هذه السفارة عادت من دمشق الى القسطنطينية ، فأخبرت الامبراطور أن العرب يستعدون في البر والبحر للهجوم على العاصمة البيزنطية. وعلى هذا أمر الامبراطور سكان القسطنطينية أن يخزن كل فرد لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، أما من كان غير قادر على تدبير مؤونته فعليه أن يخرج من المدينة. كما أمر أيضا بترميم سور المدينة وبنـاء سـفن حربية وزيادة الاسلحة الدفاعية المتنوعة. كذلك رغـب انستاسيوس الثاني أن يدمر الاسطول العربي في الموانى السورية قبل أن يستكمل عدته ويتحرك نحو القسطنطينية ، ولذا أمر جنود ثغر الابسيق أن يتجمعوا في جزيرة رودوس ، ومن ثم يتوجهون لضرب الموانى السورية. ولكن هؤلاء الجنود ما ان وصلوا الى جزيرة رودوس حتى رفعوا راية العصيان وتمردوا علـى أوامـر الامبراطور ، بل انهم عادوا من حيث أتوا ، فعزلوا انستاسيوس الثاني عن العرش البيزنطي ونصبوا مكانه تيودوسيوس الثالث امبراطورا(٢). وكان حكم الامبراطور الجديد (الملقب بالكاره لانه قبل التاج مرغما) قصير الامد (٧١٥ – ٧١٧) وضعيفا ، حيث وقف ضده الستراتيجوس ليون الايسوري قائد ثغر الاناضول ، الذي تحالف مع الستراتيجوس ارتاباسدوس قائد ثغر أرمينيا وأخذ يسعى لاستلام التـاج الامبراطوري.

في دمشق مات الوليد بن عبد الملك سنة ٧١٥ ، فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك ، الذي تابع سياسة أخيه في استكمال الاستعدادات العسكرية واعداد الحملة المزمع ارسالها لاحتلال العاصمة البيزنطية. هذا وقد تكاتفت مصر والشام وشمال أفريقيا على تزويد الحملة العربية بما تحتاج اليه من عدة وعتاد. وفي سنة ٧١٦ تحركت القوات العربية من سورية برا وبحرا باتجاه القسطنطينية وعلى راسها أخو الخليفة مسلمة بن عبد الملك. كان الهدف الرئيسي للحملة هـو احتـلال

القسطنطينية ، ولذا تجنب مسلمة الاصطدام مع القوات البيزنطية أثناء عبوره آسيا الصغرى ، اذ أنه أجرى مفاوضات مع ليون الايسوري قائد ثغر الاناضول ، ثم تابع سيره نحو الغرب ، فاحتل مدينة برغام ، ومن ثم عبر بقواته الدردنيل الى تراكيا ليحاصر القسطنطينية من الجهة الاوروبية(٣) . ويتحدث المؤرخ الطبري عن المفاوضات التي أجراها مسلمة بن عبد الملك وقائده سليمان بن الوليد مع ليون الايسوري ، الذي كان في مدينة عمورية ، فيفهم من حديثه أن كلا من الطرفين كان يخادع الآخر . فالمسلمون تظاهروا بأنهم سيساعدون ليون الايسوري على ارتقاء العرش البيزنطي ، في حين كانوا يقصدون من وراء ذلك أن يتجنبوا مقاومته لهم في آسيا الصغرى وأن يدفعوه للاقتتال مع الامبراطور تيودوسيوس الثالث ، بغية تمزيق القوات البيزنطية والهائها بالصراع فيما بينها . أما ليون الايسوري فكان هو الآخر يناور ويخادع ، حيث كان يرغب أيضا بتجنب الاصطدام مع القوات العربية الاسلامية ، لانه كان ينوي أن يسبقها الى القسطنطينية لينتزع لنفسه العرش البيزنطي ، ومن ثم ينظم الدفاع عن العاصمة البيزنطية(٤) .

استطاع ليون الايسوري أن يدخل القسطنطينية ، فأعلن أن المدينة معرضة لحصار طويل من قبل جيش المسلمين القوي العدة والعتاد ، كما أن هذا الوضع الخطير يتطلب وجود شخصية حازمة في رأس السلطة لمواجهة الازمة التي توشك أن تحل بالعاصمة . وعلى هذا اجتمع كبار السياسيين في القسطنطينية وقرروا عزل الامبراطور الضعيف تيودوسيوس الثالث ، وتنصيب ليون الايسوري امبراطورا على العرش البيزنطي في ٢٥ آذار سنة ٧١٧(٥) . وأمضى ليون الايسوري خمسة أشهر بعد جلوسه على العرش في استكمال الاستعدادات التي بدأها الامبراطور السابق وتنظيم الدفاع عن القسطنطينية ضد الهجوم العربي المرتقب ، كما عقد اتفاقية صداقة مع ترفل خان البلغار ، الذي تعهد بموجبها أن يهاجم القوات العربية التي ستحاصر القسطنطينية .

في ١٥ آب سنة ٧١٧ ضرب الجيش العربي الحصار على القسطنطينية من جهة البر الاوروبي ، في حين احتل الاسطول العربي المكون من ١٨٠٠ سفينة (هذا العدد الذي يحدده تيوفانس مبالغ فيه) مدخل البوسفور الجنوبي وقطع الاتصال بين القسطنطينية وبحر مرمرة . واراد سليمان قائد الاسطول العربي أن يعبر بسفنه البوسفور ليصل الى البحر الاسود كي يطوق القسطنطينية من الشمال ويقطع الامدادات العسكرية والتموينية التي تأتيها من شواطىء البحر الاسود الشمالية . وفي الثالث من أيلول هبت رياح جنوبية ملائمة لعبور البوسفور، فدخلته مجموعة من السفن العربية ، حيث اتجه بعضها نحو الشواطىء الآسيوية وبعضها الآخر نحو شواطىء

تراكيا الاوروبية ، في حين بقيت بعض السفن الحربيــة تحرس السفن المحملة بالمؤونة والعتاد . وفجأة غيرت الرياح اتجاهها وعصفت من جهة الشمال ، كما تدفق تيار مائي شديد من البحر الاسود الى بحر مرمرة ، فاختل سير السفن العربية وأخذت تتراجع مضطربة . انتهز الامبراطور ليون الايسوري هذه الفرصة المناسبة وأرسل بعض السفن البيزنطية المحملة بالنار الاغريقية المحرقة ، فاستطاعت هذه السفن أن تلحق أضرارا فادحة بالاسطول العربي وتجبره على التراجع نحو الجنوب . وفي اليوم التالي حاولت قوات الاسطول العربي أن تقتحم أسوار القسطنطينية مــن جهة البحر ، فاقتربت بعض السفن من الاسوار ونصبت عليها السلالم ، ولكن حامية المدينة أخذت ترشق السفن العربية بالنار اليونانية وغيرها من الاسلحة حتى أجبرتها على التراجع . كذلك أمر الامبراطور ليون بربط سلسلة حديدية في مدخل القرن الذهبي لتطوق السفن العربية اذا ما دخلت ذلك الممر المائي . لكن العرب علموا بهذه الخدعة ولم يحاولوا دخول القرن الذهبي ، بل انسحبوا من البوسفور وقــادوا سفنهم لترسو على الشاطىء الاوروبي في خليج سوستبا(٦) .



بعد فشل الاسطول العربي في العبور الى البحر الاسود واكمال حلقة الحصار البحري للقسطنطينية ، وبعد فشله أيضا في اقتحام أسوار المدينة من جهة البحر ، لم يعد أمام القوات العربية الا أن تهاجم العاصمة البيزنطية من جهة البر . لكن المصادر العربية والمصادر اليونانية لم تذكر لنا أية محاولة جدية قام بهــا العــرب لمهاجمة الاسوار من جهة البر . وعلى ما يبدو فان تفوق بيزنطة في الاسلحة والمنشآت الدفاعية لم يترك مجالا للعرب في اقتحام أسوار القسطنطينية . وعلى هذا لم يستطع العرب بأسلحتهم الهجومية البسيطة ان يدكوا تلك الاسوار المنيعة التي يصعب أخذها باسلحة ذلك العصر . بعــد ذلك ظل العرب المسلمون يحاصرون القسطنطينية طيلة فصل الشتاء، رغم أن الطقس كان قارسا غير عادي ، حيث ظــل الجليد يغطي منطقــة تراكيا طيلة مئــة يوم ، مما أدى الى موت عدد كبير من الجمال والخيول والجنود في معسكر المسلمين بسبب الجوع والبرد الشديد(٧) . ويذكر المؤرخ الطبري أن المصاعب التي عاناها الجنود العرب أمام جدران القسطنطينية لم يتعرضوا لمثلها من قبل ، حيث انهم اضطروا أن يأكلوا الحيوانات الميتة وقشور الشجر وكل شيء عدا التراب (٨) .

ولكي يعوض مسلمة بن عبد الملك الخسائر التي لحقت بمعسكر العرب المسلمين طلب امدادات عسكرية وتموينية من مصر وشمال افريقيا ، فجاءه من مصر في ربيع

سنة ٧١٨ اسطول (بقيادة أمير بحر يدعى سفيان) مؤلف من اربعمائة سفينة سريعة محملة بالحبوب ، كما جاءه من شمال افريقيا اسطول آخر (تحت امرة شخص يدعى يزيد) مؤلف من ثلاثمائة وستين سفينة كبيرة محملة بالسلاح والغذاء . وقد رست سفن الاسطول المصري على الشاطىء الاوروبي للبوسفور ، في حين رست سفن اسطول شمال افريقيا على الشاطىء الآسيوي للبوسفور . ويذكر تيوفانس أن بعض البحارة الاقباط الذين كانوا في الاسطول العربي تسللوا ليلا على زورق الى القسطنطينية وأخبروا الامبراطور البيزنطي عن الاسطولين الراسيين على شواطىء البوسفور . وقد أرسل الامبراطور مجموعة من السفن الحربية المجهزة بالنار اليونانية المحرقة ، فتمكنت تلك السفن أن تلحق اضرارا فادحة بقطع الاسطول العربي وتستولي على بعض السفن المحملة بالعتاد والمؤونة(٩) . بعد أن تلقى الاسطول العربي هذه الضربة القاصمة لم تعد المصادر تذكر شيئا عن محاولة قيامه بأية عملية حربية حتى تاريخ انسحاب القوات العربية من ضواحي القسطنطينية في الخامس عشر من آب سنة ٧١٨ . وهكذا لم يتمكن الاسطول العربي من تحقيق المهمة الحربية الاساسية الملقاة على عاتقه وهي محاصرة القسطنطينية من الجنوب والشمال ومنع وصول الامدادات والمؤونة اليها . فالسفن البيزنطية ظلت تخرج الى المياه المجاورة للعاصمة ، حتى أن صيادي السمك كانوا يصطادون قرب أسوار المدينة والجزر القريبة منها دون أن تتعرض لهم سفن الاسطول العربي(١٠) . ويذكر تيوفانس أيضا : أن بعض سكان القسطنطينية كانوا يخرجون منها على الخيول ويأتون بالمؤونة المتنوعة ، وهذا يدل على أن العاصمة البيزنطية ظلت تتلقى الامدادات العسكرية والتموينية من البر والبحر ، مما ساعدها على الصمود أمام الحصار العربي .

هذا وقد جاءت قوات برية جديدة من الشام بقيادة رجل يدعى مرداس ، فوصلت الى ثغر الابسيق في آسيا الصغرى . وكانت مهمة هذه القوات ان تمنع وصول الامدادات من هذا الثغر الى العاصمة البيزنطية المحاصرة . لكن هذه القوات العربية تعرضت للمقاومة من قبل جنود ثغر الابسيق والسكان المحليين ، الذين كانوا يشنون عليها حرب عصابات « كما يفعل المردة عادة »(١١) .

يضاف الى هذا أن الامبراطور ليون الايسوري استطاع أن يستميل الى جانبه ترفل خان البلغار ، فأخذت القوات البلغارية تغير على مؤخرة الجيش العربي الاسلامي الذي يحاصر القسطنطينية من الجانب الاوربي . وقد كان هذا التدخل البلغاري أحد العوامل التي لعبت دورا في فشل الحصار العربي للعاصمة البيزنطية .

ترتب على كل العوامل المذكورة آنفا ان اضطر الجيش العربي الاسلامي أن يرفع الحصار عن العاصمة البيزنطية ، بعد أن دام سنة كاملة .

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد توفي في خريف سنة ٧١٧ ، فخلفه عمر ابن عبد العزيز ، الذي رغب بتوجيه الجهود لتنظيم الدولة أكثر من الاهتمام بمتابعة الفتوح . وعلى هذا كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى مسلمة بن عبد الملك يطلب منه أن يرفع الحصار ويعود بجيشه واسطوله الى الشام(١٢) .

وهكذا في ١٥ آب سنة ٧١٨ انسحبت القوات العربية البرية من المواقع المجاورة للقسطنطينية ، فعبرت بحر مرمرة الى الشواطىء الآسيوية ، ثم اجتازت آسيا الصغرى عائدة الى الشام في حالة سيئة . أما السفن المتبقية من الاسطول العربي فقد ابحرت عائدة ، ولكنها تعرضت لعواصف شديدة في بحر مرمرة وبحر ايجة الحقت بها بعض الخسائر . ويتابع المؤرخ البيزنطي حديثه قائلا : « بعد أن اجتازت السفن المتبقية بحر ايجة أصابها غضب الرب ، حيث هبطت عليها كرات نارية أدت الى غليان ماء البحر وذوبان القار (المادة اللاصقة لخشب السفن) ، مما أدى الى غرقها بمن فيها الى قاع البحر . هذا ولم تسلم سوى عشر سفن لتخبرنا وتخبر العرب عن عظمة الرب . ومن تلك السفن أسرت قواتنا خمس سفن ، فبقيت خمس سفن وصلت الى سورية لتخبر العرب عن قدرة الرب »(١٣) . هكذا يبالغ المؤرخ البيزنطي تيوفانس في حجم الخسائر التي مني بها الاسطول العربي ، كما يصور الاحداث بلغة شبه اسطورية . على انه ليس من المستبعد أن تكون السفن البيزنطية السريعة (درومونة) المجهزة بالنار اليونانية المحرقة قد لحقت بالسفن العربية أثناء تراجعها ، فالحقت بها بعض الخسائر أيضا . وهكذا انتهت بالفشل هذه الحملة العسكرية الكبيرة التي شنها العرب المسلمون على العاصمة البيزنطية . وفي الواقع لاول مرة يلاقي العرب المسلمون مثل هذا الفشل في تلك العملية الحربية التي قاموا بها لاحتلال القسطنطينية(١٤) .

ان فشل العرب المسلمين في احتلال القسطنطينية أكد لهم انهم مهما ملكوا من سفن حربية فانهم لايستطيعون احتلال العاصمة البيزنطية دون أن يثبتوا اقدامهم ويوطدوا سيطرتهم في المناطق المجاورة لها ، ولذا لم يحاولوا فيما بعد القيام بمثل هذه العملية . على أن العرب المسلمين ، رغم فشلهم في احتلال القسطنطينية ، استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على كثير من موانىء البحر الابيض المتوسط وخطوطه، خاصة في حوضه الغربي . ومن جهة ثانية ، رغم أن الاسطول البيزنطي تمكن من الحاق الخسائر بالاسطول العربي في المياه القريبة من القسطنطينية ، لكنه في الواقع لم يستطع حتى ذلك الحين أن يفرض سيطرة بيزنطة على البحر المتوسط أو على الجزر والطرق القريبة من العاصمة البيزنطية . فلو كان الاسطول البيزنطي يسيطر

تماما على مدخل بحر مرمرة او بحر ايجة أو الجزر المجاورة لما تمكن الاسطول العربي أن يصل البوسفور ويحاصر القسطنطينية طيلة عام كامل .



بعد الضربة القاسية التي تلقتها الاساطيل العربية الثلاثة (اسطول سورية ، اسطول مصر ، اسطول شمال افريقيا) أثناء حصار القسطنطينية سنة ٧١٧ – ٧١٨ لم يستطع العرب المسلمون استعادة قوتهم البحرية السابقة طيلة القرن الثامن . ففي سورية ومصر لوحظ تقلص ملموس في صناعة السفن الحربية مدة بضع عشرات من السنين ، كما توقف العرب المسلمون تقريبا عن شن حملات بحرية في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي . أما في شمال افريقيا فقد استمرت صناعة السفن الحربية ، كما كثرت غارات العرب المسلمين من شواطئها على صقلية وسردينية واستمرت حتى منتصف القرن الثامن الميلادي . ومن العوامل التي أدت الى انحسار نشاط الاسطول العربي في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي تخلي الخلفاء الامويين اللاحقين عن فكرة احتلال القسطنطينية ، بعد الفشل الذي لاقاه العرب المسلمون في حملة سنة ٧١٧–٧١٨ . وعلى هذا لم يعد هؤلاء الخلفاء يوجهون اهتمامهم لتطوير القوات البحرية . ومن جهة ثانية انشغل الخلفاء الامويون المتأخرون باخماد حركات التمرد وتثبيت سلطتهم داخل البلاد .

أما البيزنطيون فقد استغلوا ظروف الدولة الاموية المضطربة في أواخر عهدها ، فاخذوا ينشطون عملياتهم الحربية في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي . ويذكر المؤرخ البلاذري أن البيزنطيين أغاروا على ساحل سورية في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة مئة هجرية (٧١٩ ميلادية) ، فهدموا مدينة اللاذقية وأسروا الكثير من أهلها (١٥) . كما يذكر المؤرخ الكندي أن البيزنطيين أغاروا على تينيس في دلتا النيل بمصر سنة احدى ومائة هجرية (٧٢٠ ميلادية)(١٦) ، ثم أعادوا غارتهم على مصر سنة ٧٢٥ ميلادية(١٧) . هذه الغارات البيزنطية المتكررة على سواحل مصر والشام دفعت الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يخفض مقدار الفدية عن أهل قبرص (وكان عبد الملك بن مروان قد زاد عليهم ألف دينار عن صلح معاوية) (١٨) ، ذلك أنه خشي أن ينقلبوا الى جانب البيزنطيين وهو لايملك القوة البحرية الكافية للدفاع عن هذه الجزيرة .

على أن الصراع الداخلي على الحكم في بيزنطة واشتراك الاسطول البيزنطي في هذا الصراع أجبر البيزنطيين على ايقاف الغارات البحرية على السواحل العربية لفترة

وجيزة . ففي سنة ٧٢٦ أغار اسطول الادا وكيكلادا على القسطنطينية ، بغية عزل الامبراطور ليون الايسوري عن العرش البيزنطي وتنصيب قائد الاسطول كوسموس مكانه ، ولكن اسطول القسطنطينية تمكن من تحطيم الاسطول المهاجم(١٩) . استغل الخليفة هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣) الوضع المضطرب في بيزنطة ، فارسل اسطولا من الشام الى قبرص سنة ٧٢٦ وفرض على أهلها دفع الفدية بمقدار ماكانت عليه قبل أن يخفضها عنهم الخليفة السابق عمر بن عبد العزيز(٢٠) .

لكن ازدياد اضطراب الاوضاع الداخلية في الدولة الاموية في الربع الثاني من القرن الثامن أجبر العرب المسلمين في الشام على ايقاف العمليات البحرية ، في حين جدد البيزنطيون نشاطهم البحري في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي ، خاصة بعد أن وطد الامبراطور ليون الايسوري حكمه في القسطنطينية . ففي سنة ٧٣٦ ميلادية (١١٨ هجرية) أغار الاسطول البيزنطي على مصر وأسر الكثير من أهلها (٢١) . وفي سنة ٧٣٩ ميلادية (١٢١ هجرية) اغار اسطول بيزنطي مؤلف من ٣٦٠ سفينة على دمياط ، فقتل الكثير من العرب المسلمين وأسر بعضهم(٢٢) . وقد كان الهدف من هذه الغارات البيزنطية المتكررة على الموانى المصرية هو عدم افساح المجال لتطوير الاسطول المصري .

واذا كان العرب المسلمون قد أوقفوا نشاطهم البحري تقريبا في أواخر العهد الاموي ، فانهم حاولوا أن يعوضوا عن ذلك بتنشيط العمليات الحربية البرية في آسيا الصغرى . فالمؤرخ البيزنطي تيوفانس يذكر أن العرب المسلمين شنوا حملة عسكرية على آسيا الصغرى سنة ٧٣٩ ، وكانت تلك الحملة مؤلفة من تسعين ألف جندي موزعين على أربع فرق بقيادة اربعة من القادة الكبار . ولكن الامبراطور البيزنطي ليون الايسوري تصدى لتلك القوات العربية الاسلامية بنفسه ، فتمكن من الحاق الهزيمة بها في موقعة جرت بين الطرفين (سنة ٧٤٠) في مكان يدعى أكروينون بالقرب من عمورية (٢٣) .

وفي الاربعينيات من القرن الثامن توتر الصراع بين البيزنطيين والعرب المسلمين من أجل السيطرة على جزيرة قبرص ، لما لها من أهمية ستراتيجية بالنسبة لكلا الطرفين . فعلى ما يبدو حرض البيزنطيون أهل قبرص على قطع الفدية السنوية التي كانوا يؤدونها للعرب المسلمين ، وهذا مما دفع الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (٧٤٣ ـ ٧٤٤) أن يبعث بحملة عسكرية الى قبرص كي يرغم أهلها على دفع الفدية المفروضة عليهم . ولكي يضمن العرب المسلمون استمرار القبارصة في دفع الفدية لهم جابوا معهم الى الشام عددا كبيرا من الرهائن من أهل قبرص .

على أن هؤلاء الرهائن أعيدوا الى بلدهم بعد مضي عام على احتجازهم — أي في عهد الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك (٢٤) . ولكن ما ان انتهى الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس من صراعه الداخلي مع القائد المتمرد عليه ارتاباسدوس حتى بعثبحملة بحرية الى قبرص جهز سفنها بالنار اليونانية المحرقة . ردا على ذلك أبحرت بعض السفن من سورية الى الاسكندرية ، ومنها انطلقت مع السفن المصرية الى قبرص (سنة ٧٤٧) لطرد الاسطول البيزنطي من هذه الجزيرة . على أن قائد الاسطول البيزنطي نصب كمينا للسفن العربية فطوقها في ميناء كيرامس وأحرق معظمها . ويذكر المؤرخ تيوفانس أنه لم يبق من السفن العربية ، التي بلغ عددها ألف سفينة (العدد مبالغ فيه) ، سوى ثلاث سفن لاذت بالفرار (٢٥) .



ان تحطيم الاسطول العربي في سواحل قبرص سنة ٧٤٧ مكن البيزنطيين من فرض سيطرتهم على تلك الجزيرة وعلى الطرق التجارية البحرية في حوض البحر المتوسط الشرقي . أما العرب المسلمون فلم يستطيعوا استعادة قوتهم البحرية طيلة النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي . لقد توقفت عمليات الاسطول المصري مدة طويلة من الزمن ، حيث أنه فقد قدرته القتالية . فالمصادر لم تعد تذكر لنا أية عملية بحرية قام بها الاسطول المصري حتى منتصف القرن التاسع الميلادي . غير ان الاسطول السوري استعاد بعض قوته في الربع الاخير من القرن الثامن . فالعباسيون الاوائل بعد أن وطدوا حكمهم في الداخل أخذوا يوجهون الحملات البرية والبحرية الى الاراضي البيزنطية ، ففي سنة ٧٧٢ (١٥٧ هـ) قام القائد العباسي ثمامة بن أبي وقاص بحملة برية وبحرية الى شواطىء ايسوريا في جنوب آسيا الصغرى ، فتصدت له القوات البيزنطية البرية والبحرية وتمكنت من قطع الاتصال بين القوات البرية والقوات البحرية العربية . ولكن ثمامة استطاع الافلات من الحصار وعاد بقواته البرية الى الشام ، في حين تراجعت السفن العربية الى قبرص ، فتمكنت أن توقع في الاسر حاكم الجزيرة البيزنطي المدعو سرجيوس(٢٦) . وعلى ما يبدو فان العرب المسلمين تمكنوا آنئذ أن يفرضوا سلطتهم على قبرص ، بعد أن كانوا قد أجلوا عنها سنة ٧٤٧ . وفي سنة ٧٨٢ توغلت قوات العرب المسلمين في آسيا الصغرى ، فغلبوا البيزنطيين في درنون ووصلت طلائعهم الى شواطىء البوسفور . وعلى هذا اضطرت الامبراطورة ايرين أن تدفع فدية سنوية مقدارها سبعون (أو تسعون) ألف دينار للعرب المسلمين مقابل ايقاف غاراتهم على الاراضي البيزنطية . ولكن العرب المسلمين أغاروا على الاراضي البيزنطية سنة ٧٨٤ ، فاستولوا على ثيباسة في كابادوكيا . كذلك تجدد

الصراع البيزنطي العربي من أجل السيطرة على قبرص . ففي سنة ٧٩٠م أسر الاسطول البيزنطي بعض السفن العربية وهي في طريقها من مصر الى الشام وفي السنة نفسها اغار الاسطول العربي من الشام على قبرص فهزم الاسطول البيزنطي هناك وأسر قائده تيوفيلوس(٢٧) . وفي سنة ٧٩٨ توغلت القوات العربية البرية في آسيا الصغرى واكتسحت كابادوكيا ، فاضطرت الامبراطورة ايرين أن تدفع لهارون الرشيد الفدية السنوية التي كانت قد دفعتها للمهدي من قبل(٢٨). وهكذا كانت بيزنطة في أواخر القرن الثامن في حال من الضعف (بسبب الاضطرابات الداخلية) لا يسمح لها أن تتصدى لهجمات القوات العربية ، مما اضطرها أن تدفع الذهب البيزنطي للعرب المسامين ثمن التوقف عن شن الحملات الحربية على أراضيها ومياهها .



واذا كان الاسطول المصري والاسطول السوري قد توقفا عن شن الحملات البحرية على السواحل البيزنطية لفترة طويلة ، حيث فقدا قدرتهما القتالية بعد الضربة القاصمة التي تلقياها أثناء حصار القسطنطينية سنة ٧١٧ – ٧١٨ ، فان اسطول شمال افريقيا تابع نشاطه البحري في حوض البحر الابيض المتوسط الغربي . فقد استمر بناء السفن الحربية في ميناء تونس ، مما مكن عرب شمال افريقيا من شن الحملات البحرية على جزر البحر المتوسط الغربية ، دون مساعدة أو مشاركة الاسطول المصري أو السوري . ففي سنة ٧٢٠ أغار اسطول شمال افريقيا على جزيرة صقلية وجلب منها الغنائم الكثيرة(٢٩) . وفي سنة ٧٢٧ (١٠٩هـ) أغار والي شمال افريقيا بكر بن صفوان باسطوله على صقلية وعاد منها محملا بالغنائم(٣٠) . وبعد سنتين – أي في سنة ٧٢٩ بعث والي شمال افريقيا عبيدة بن عبد الرحمن حملة بحرية الى صقلية بقيادة أمير البحر المستنير بن الحارث ، ولكن تلك الحملة طالت اقامتها في صقلية حتى الخريف ، مما عرضها لعاصفة بحرية أثناء تراجعها ، ففرقت معظم السفن . وقد عاقب والي شمال افريقيا قائد الحملة البحرية على الخطأ الذي ارتكبه ، اذ أركب على حمار في شوارع القيروان وضرب بالسوط لمدة اسبوع ثم أودع السجن(٣١) .

تلك الغارات المستمرة التي شنها الاسطول التونسي على صقلية دفعت البيزنطيين أن يبعثوا باسطول مجهز بالنار اليونانية المحرقة لحمايتها . ففي سنة ٧٣٣ (١١٦ هـ) اصطدم الاسطول التونسي مع الاسطول البيزنطي في سواحل صقلية، فوقع في الاسر بعض المسلمين وقائدهم عبد الرحمن بن زياد(٣٢) ولكن العرب المسلمين

لم يتراجعوا عن هدفهم في احتلال صقلية ، بل استمروا في تنشيط الاستعدادات البحرية . فلقد اهتم والي شمال افريقيا عبيد الله بن الحباب اهتماما كبيرا بتوسيع دار صناعة السفن في تونس ، حتى قيل عنه فيما بعد (خطأ) انه هو الذي أسس دار صناعة السفن في تونس(٣٣) . ويذكر المؤرخ ابن الاثير : أن اسطول تونس بقيادة حبيب الفهري أغار في سنة ٧٣٥ على سردينيا وعاد منها محملا بالغنائم(٣٤) . وفي سنة ٧٤٠ قاد حبيب الفهري اسطولا يحمل قوات برية كبيرة الى صقلية ، فانتصر على الاسطول البيزنطي المرابط هناك ، كما تقدمت القوات البرية بقيادة ابنه عبد الرحمن الى سيراكوزة عاصمة صقلية ، فسقطت تلك المدينة بأيدي العرب المسلمين. وقد صمم حبيب الفهري على البقاء في صقلية حتى يحتل جزر البحر المتوسط الغربية الاخرى ، الا أن والي شمال افريقيا استدعاه وقواته الى تونس ليساعده في اخماد ثورة البربر والخوارج التي نشبت آنئذ في شمال افريقيا(٣٥) . هذا وقد أدى انشغال العرب المسلمين باخماد ثورة البربر والخوارج في شمال افريقيا الى توقف نشاط الاسطول التونسي في حوض البحر المتوسط الغربي طيلة اثني عشر عاما. فالمصادر التاريخية لم تعد تذكر شيئا عن عمليات الاسطول التونسي في البحر المتوسط حتى سنة ٧٥٢ . ففي تلك السنة قاد عبد الله بن حبيب الفهري حملة الى صقلية ، فغنم منها مالم يغنمه غيره من قبل(٣٦) . وفي سنة ٧٥٣ (١٣٦ هـ) ايضا قاد عبد الرحمن بن حبيب الفهري حملة بحرية الى سردينيا وفرض الجزية على سكانها(٣٧) .

كان الهدف من تتابع الحملات البحرية العربية على جزر البحر المتوسط الغربية في الربع الثاني من القرن الثامن هو تحقيق أهداف ستراتيجية ـ عسكرية واقتصادية. لقد أراد العرب المسلمون السيطرة على تلك الجزر لاستخدامها كقواعد عسكرية لهم ينطلقون منها الى الشواطىء الاوروبية والبيزنطية ، كما ارادوا أيضا حماية خطوطهم التجارية البحرية الممتدة من اسبانيا حتى سورية .

على أن انشغال العرب المسلمين باخماد ثورة البربر والخوارج في شمال افريقيا مكن البيزنطيين من توطيد سلطتهم في صقلية وتقوية وسائل الدفاع عنها . ففي سنة ٧٣٢ ضمت هذه الجزيرة مع جنوب ايطاليا الى الممتلكات البيزنطية ، بعد أن كانت تابعة لبابا روما ، وذلك بسبب الخلاف الذي نشب بين البابا والامبراطور البيزنطي ليون الايسوري حول تقديس الايقونات . وفي عهد الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس ٧٤١ ـ ٧٧٥ سيطرت القوات البيزنطية سيطرة تامة على جزيرة صقلية ، ويشير المؤرخ ابن الاثير الى ذلك فيقول: عندما انشغل والي افريقيا بالصراع مع البربر صار سكان صقلية يعيشون بأمان ، حيث أن البيزنطيين أقاموا فيها حصون دفاعية ودعموها بالمقاتلين ، كما أخذت سفنهم تقوم بدوريات حراسة حول الجزيرة ،

فتأسر ما تصادف من سفن التجار المسلمين(٣٨) . كما أننا نعلم من المصادر اليونانية أن البيزنطيين قد شكلوا في صقلية (في منتصف القرن الثامن) ثغرا بحريا مستقلا يتولى الدفاع عن الجزيرة . وعلى هذا ساد الهدوء تقريبا في مياه حوض البحر المتوسط الغربي طيلة النصف الثاني من القرن الثامن . لقد توقف نشاط الاسطول التونسي في تلك الفترة بسبب ازدياد قوة الدفاع البيزنطية في صقلية من جهة ، واضطراب الاوضاع الداخلية في شمال افريقيا من جهة ثانية . وتجدر الاشارة الى ان الاسطول التونسي سيجدد نشاطه في حوض البحر المتوسط الغربي في بداية القرن التاسع أثناء حكم الاغالبة في شمال افريقيا ، كما سينشأ اسطول عربي آخر في اسبانيا ويقوم بعمليات حربية في حوض البحر المتوسط الغربي في أواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع .



مصادر ومراجع

(١) الدكتور نعيم فرح : اطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ البيزنطي من جامعة لينينغراد سنة١٩٧١ موضوعها : « العلاقات البحرية بين بيزنطة والعرب في القرنين السابع والثامن » ، وهي مكتوبة باللغة الروسية (غير مترجمة) وتتضمن دراسة لأوراق البردي المصرية المكتوبة باللغة اليونانية . والتي تتحدث عن بناء السفن الحربية في مصر في بداية القرن الثامن الميلادي : الاطروحة صفحة ٢٦٧ – ٢٩٣ .

الحواشي :

(٢) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٥٨٨ – ٥٩١ .

(٣) Nicephori Archiepiscopi Constantino-politeni, Historica, edidit, Carolvs de Boor, Lipsiae, 1880, P. 52-53.

نقفور – بطريرك القسطنطينية ، تاريخ ، ص٥٢ – ٥٣ ، انظر الترجمة الروسية في المسلسل البيزنطي B.B الجزء الثالث ، ص ٣٧٣ .

(٤) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، أخبارسنة ٩٨ هجرية .

(٥) Bury. J. B. History of Later Roman Empire, 1, 1931, P. 388.

(٦) تيوفانس : خرنوغرافيا ، ص . ٦٠٧ – ٦١١ ، نقفور بطرك القسطنطينية : تاريخ ، ص ٥٢–٥٥ .

(٧) تيوفانس : خرنوغرافيا ، ص ٦٠٧ – ٦١١ .

(٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (أخبارسنة ٩٨ هجرية) .

(٩) تيوفانس : خرنوغرافيا ، ص ٦٠٧ – ٦١١

(١٠) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٠٧ – ٦١١ .

(١١) المصدر نفسه والصفحات نفسها .

(١٢) الدكتور ابراهيم أحمد العدوي : الامويون والبيزنطيون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٢٣ .

(١٣) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦١٣ – ٦١٤ .

(١٤) Ekkehard Eickhoff, Seekrieg und Seepolitik Zwischen, Islam und Abendland das Mittelmeer unter byzantinischer und arabischer Hegemonie (650-1040), Berlin, 1966, S. 32-35.

(١٥) البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة السعادةبمصر ، ص ١٣٩ .

(١٦) El-Kindi, The Governors and jadges of Egypt. Leyden, 1912, P. 70.

(١٧) Wiet. G. S., Egypt Arabe, Paris, 1937, P. 56.

(١٨) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٥٩ ١.

(١٩) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٢٣ — ٦٢٤ .

(٢٠) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٩ .

(٢١) الكندي : كتاب الولاة والقضاة في مصر ، لندن ١٩١٢ ص ٧٩ .

(٢٢) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، بولاق ١٨٥٣ ، ص ٩ .

(٢٣) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٣٣ .

(٢٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٩ « وحدثني هشام بن عمار الدمشقي قال : حدثني الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو : ان معاوية بن ابي سفيان غزا قبرس بنفسه ومعه امراته ففتحها الله فتحا عظيما وغنم المسلمون غنما حسنا ، ثم لم يزل المسلمون يغزونهم حتى صالحهم معاوية في ايامه صلحا دائما على سبعة الاف دينار وعلى النصيحة للمسلمين وانذارهم عدوهم من الروم هذا او نحوه . قالوا : وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك اجلى منهم خلقا الى الشام لامر اتهمهم به فانكر الناس ذلك فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم ... وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي في اسناده ، قال : لم يزل اهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم الف دينار فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم . ثم لما ولي هشام بن عبد الملك ردها فجرى ذلك الى خلافة ابي جعفر المنصور ، فقال : نحن احق من انصفهم ولم نتكثر بظلمهم فردهم الى صلح معاوية » .

(٢٥) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٥٣ .

(٢٦) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٨٨ — ٦٩٠ .

(٢٧) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٧٢٠ — ٧٢١ . انظر ، فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، الكتاب الاول ، ص ٣٨٤ .

(٢٨) انظر ، الدكتور اسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

(٢٩) النويري : .... : ج ٢ ص ٢٥٢ ؟

(٣٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، طبعة برلين ١٨٧١ ، ج ٥ ، ص ١٠٨ .

(٣١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص١٣٠ .

(٣٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٣٧ .

(٣٣) ابن عذاري : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٩ .

(٣٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص١٤١ – ١٤٥

(٣٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص١٤١ – ١٤٥

(٣٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص٣٤٩ .

(٣٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص٣٤٩ – ٣٥٠ .

(٣٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص٣٤٩ .

